تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بدء الدولة السلجوقية في فارس

في السنة ١٣٤٧ للبونان (١٠٣٦ م) برز قوم من الهونيين او الغزّ ومعهم امراء سلجوقيّون من عرقانة مدينة بارض الخزر شمالًا. وقد كتب عنها بالتفصيل مار ميخائيل البطريرك القديس قال: هم بنو ماجوج بن يافث بن نوح. عنهم تنبأ حزقيال اذ قال: «هكذا قال السيد الرب هئذا اليك يا جوج رئيس روش وماشك وتوبل. فأديرك وأجعلُ حلقةً في فكك وأخرجك انت وجميع جيشك خيلًا وفرساناً من كلّ لابس ثياباً فاخرة جمعاً كثيرًا ذا مجانب ومجانّ من كلّ قابض سيف. ومعهم فارس وكوش وفوط. وكلهم ذوو مجانّ وخُوَذ. ومعك جومر وجميع جيوشهم وآل توجرمة واقاصي الشمال وجميع جيوشهم وشعوب كثيرون... فانك بعد ايام كثيرة تُفتقَد وفي آخر السنين تأتي» (حزقيال ٣٨: ٣-٢٨).

وقد طالعتُ انا الحقير كتاباً فارسيًا عنوانهُ «ملك نامه» ذكر مؤلفه انه سمع اميرًا كبيرًا وشيخًا هرماً اسمه اينانغ بك يقول: لمّا ظهر بيغو خاقان الخزر كان بخدمته رجل محاربٌ اسمه توقاق أُطلق عليه بسبب بسالته لقب تموريالیغ اعني صاحب القوس الحديدية. فبهذا ولَد ابناً أسماه سلجوق. وبعد زمن وجيز (٢١٨) مات الامير توقاق فاحتضن الخاقانُ سلجوقَ وربّاه في بلاطهِ وأحبّه حبًا جمًا. وزار سلجوق يوماً الخاقان كعادته فخامر الملكة ريبٌ في أمره وقالت للملك: يخال اليّ ان لهذا الصبيّ دالةً كبرى عندك الآن. فما يكون من أمره يا ترى متى نمى وترعرع؟ وقد اطلع سلجوق على ذلك

سراً فخرج خفيةً مستصحباً ابنا. قبيلته وارتحل في خيـل وإبل وغنم وبقر كثير من ارض توران التركيَّة الى ارض ايران الفارسيَّة بشكل رائع. ولما شاهد بلاد فارس عامرة بالمسلمين عقد مشورة مع رجاله وقالوا : إلَم ننضمّ الى دين ابنا. البلاد التي يمناها لا يتبعنا احد بل ننقص ونبقى منعزلين. ثم اتفقوا وارسلوا الى مدينة زندة بخوارزم وهي قريبة من البرّية التي اناخوا بها وسألوا سلطانها ان يرسل اليهم معلماً يلقّنهم عبادة الله عزّ وجلّ. فلبى طلبهم وسيّر معهم شيخاً في الطاف وهدايا فانضموا الى الاسلام. واقاموا ثمّ اعواماً ونموا وكثروا جدًّا. ورُزق الامير سلجوق اربعة بنين ذكور وهم : ميخائيل وبيغو وموسى وارسلان. ورُزق ميخائيل ابنان : محمّد طغرل بك وداود جغري بك. وحشد جغري بك عسكرًا كثيرًا من التركمان وزحف الى بعض بلاد ارمينية وخراسان وغزاها وعاد يخبر اخاه طغرل بك ويقول : ان ههنا سلطانين كبيرين. خوارزمشاه هرون ومسعود بن محمد بن سبكتكين ولا سبيـل الى التغلب عليهما. فالاجدر ان نرحل الى خراسان وارمينية لانه ليس فيهما من يعارضنا كما عرفتُ. فامتثل اخوه المشورة ونهضا وعبرا نهر جيحون ووصلا الى مدينة دمغان وافتتحاها. واستأنفا الزحف الى مدينة سمنان وقهرا كذلك (٢١٩) الجيش العربيّ والفارسيّ ودخلا مدينة الريّ وأخرباها بأسرها. ثم زحفا الى قزوين فامتنعت عليهما ففرضا عليها الجزية وارتحلا.

اما ما ذكره الشيخ المغبوط (البطريرك ميخائيل) عن كلب كان يهديهم منذ غادروا وطنهم فلم نعثر عليه في غير تاريخه. ولعلّه نقل الخبر عن السماع او عن تاريخ لم نظفر به نحن لاننا لم نطالع التواريخ باجمعها.

وفي السنة ٤٢٧ للعرب (١٠٣٥ م) مات الظاهر خليفـة مصر بداء الاستسقاء. وظلّ هذا الداء متأصلا به منذ صباه مدّة عشرين سنة. وخلفـه المستنصر ابنه. وعقد هدنةً مع ميخائيل ملك الروم وأطلق خمسين الف مسيحي كانوا معتقلين في مصر. ورخّص لملك الروم ان يجدّد بنيان كنيسة القيامة باورشليم. فوجّه الملك رجلًا خبيرًا في كميَّة وافرة من فضة وذهب فرمّمها كما كانت من قبلُ.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الرئيس ابو علي حسين بن سينا . تأجرَ بالوزنة الارسطوطاليَّة فربح خمسين وزنة بدلاً من خمس وزنات . وكان ابوه من بلخ ثم انتقل الى بخارى واستوطنها وحينما بلغ ابنه الخامسة من سنه وضعه في المدرسة . ولما اكمل العاشرة أحكم القرآن والغرماطيق واللغة العربية . واخذ يختلف الى حانوتيّ بائع بقل يأخذ عنه رقم الحساب الهنديّ . ثم يتم بخارى الفيلسوف ناتلي وجعل يدرّسه الايساغوجي . ولمَّا وصل الى تحديد الجنس الذي يُطلق على انواعٍ كثيرة قال لمعلمه : هل يُطلق الجنس على كلٍّ من الانواع فردًا فردًا ؟ (٢٢٠) قال المعلم نعم . اعترض الفتى فقال : اذا سألني سائلٌ مَن هو الانسان وقلتُ له هو حيوان فقط فهل يكون جوابي صائباً ؟ قال المعلم نعم . ناقضه التلميذ وقال : لستُ اوافقك اذ لستُ بلا رويّةٍ حتى اذا سألني سائلٌ عن الحيوان الناطق مَن هو اكتفي بالقول : انه حيوان وأسكت . ومنذ إذٍ ترك المعلِّم وجعل يطالع على حدة ويتفهم ما يقرأ . ولما بلغ السادسة عشرة نبغ في الطبّ حتى اخذ شيوخ الاطبا يختلفون اليه ويقرأون عليه . ثم جعل يعود المرضى حتى احكم معالجتهم .

ولما بلغ الثامنة عشرة صنَّف كتابه الكبير المشهور بالقانون واردفه بكتاب الشفا الضخم في علوم الفلسفة الاربعين والتى عليه في عشرين يوماً وضمَّنه علوم الطبيعيّات والالهيّات . وبلغت تآليفه المشهورة المتداولة اثنين وتسعين كتاباً وضع اغلبها وهو في السجن . ونقلت انا الحقير عن العربية الى السريانية كتابه البديع « الاشارة والتنبيه » . وقد قبض عليه في اثنا فتنةٍ اثارها اميرٌ على الامير الذي كان يخدمه وحُبس في حصنٍ قال لمَّا دخله : لا ريب في دخولي ههنا اما خروجي منه فهو في ريبٍ اكيد . وظلّ محبوساً اربعين يوماً حتى والى اميرُه واحتلَّ الحصن واطلقه . وحُبس غير مرَّة ايضاً . وعلى غزير فضله فقد كانت القوة الشهوانيَّة متغلِّبة عليه فضعف جسمه بسبب ذلك وانحرف مزاجه وانتابه داء القولنج في اواخر ايامه فاحتقن ثماني مرات في يوم واحد وأوصى خادمه ان يلقي في الحقنة دانقين من بزر الكرفس لكنه ألقى خمسة دراهم (٢٢١) فحدث له قرحة في الامعاء وانتابه صرعٌ قد يتبع القولنج احياناً . وأمر

ان يركبوا له علاجاً وضع فيه خادمهُ كتبية وافرة من الافيون استعمله غير مرة حتى خمدت حرارته الطبيعية واغمض عن المعالجة وقال : ان مدبّر جسمي قد كلّ عن تدبيره ولن يستطيع الى شفائي سبيلاً بعد . وظل كذلك بضعة ايام حتى توفي ودُفن في همذان وعاش ثماني وخمسين سنة .

وفي السنة ٤٢٩ للعرب (١٠٣٧م) زحف الغزّ تكراراً الى ارمينية وقتلوا خلقاً كثيراً من اكرادها وعربها واحتووا على غنية وافرة . ثم زحفوا الى اورمية باذربيجان فانحدر اكراد الجبل وناوشوهم فانتصر الغزّ وأجهزوا على عدد وافر منهم .

ولما رأى الامير ابن وثّاب صاحب سورية وارمينية انه عاجز عن مقاتلة الروم والاتراك معاً عقد الصلح مع الروم وتخلّى لهم عن الرها فاستعمروها وازدادوا فيها .

وفي السنة عينها دوّخ الغزّ مراغة واحرقوا مسجدها الكبير وقتلوا واعتقلوا الكثيرين من اهاليها . فاحتشدت قبائل اكراد الجبل وناوشوا الغزّ واخرجوهم عن اذربيجان وانقلبوا تكراراً الى خراسان ودوّخوا طوس وفتكوا باكثر من مائة الف نسمة . وقتلوا في ضواحيها نحو عشرين الفاً واعتقلوا نحو مائة وخمسين الفاً . فزحف اليهم سرباشي سلطان خراسان في ثلاثين الف فارس فانكسر وانهزم واتجه الاكراد نحو نيسابور وحاولوا نهبها فنهاهم طغرل بك بسبب دنوّ صوم رمضان . ثم أشخص الخليفة القائم سفيراً اليهم يعاتبهم ويقول : كيف يجوز لكم ان تعاملوا العرب ابنا. دينكم مثل هذه المعاملة ؟ واعتزم جغري بك ان يحاصر نيسابور بعد الصوم فصدّه طغرل بك (٢٢٢) تنفيذاً لرسالة بعث بها اليه خليفة بغداد الاكبر . فناهضه جغري بك . فأخذ طغرل بك سكيناً وقال له : اذا فعلت هذا انتحرتُ فسكت واستزف خمسمائة الف درهم من اهاليها وعدل عن حصارها .

وكتب طغرل بك جواباً الى الخليفة هكذا : من طغرل بك بن ميخائيل عبدهِ وخادمهِ . وكتب مثله تزل صهره زوج اخته هكذا : من تزل بن يحيى عبدهِ وخادمهِ . وامتنع جغري عن الكتابة . وسار طغرل بك الى نيسابور

وجلس على عرش السلطان مسعود . واقام جغري بمدينة سركس وقزل صهره بمدينة الريّ .

وفي السنة ٤٣٠ للعرب (١٠٣٨ م) اثلجت في بغداد وظلّ الثلج بعلو شبر في الشوارع اياماً تبعه في كانون برد شديد وجمدت المياه ستة ايام . وفيها جيّش السلطان مسعود جيوشاً ضخمة من فارس الداخليّة ومن الهند الخارجيّة وأطبق على الغزّ بجانب مرو — رود وقهرهم وقتل نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة وانهزم البقيّة الى الصحراء مع طغرل بك وجغري بك . واستقرّ السلطان في خراسان نحو سنتين وتركَ جيوشه هناك وعاد الى غزنة بخوارزم . وما ان سمع الغزّ حتى زحفوا تكراراً الى خراسان عام ٤٣٢ للعرب (١٠٤٠ م) واحتلوها دون قتال واحتلوا اذربيجان كذلك .

وفي هذه السنة زحف الروم الى سورية فلاقاهم الامير انوشتكين بجوار حماة وتغلّب عليهم واوثق ابن عمّ الملك وقتل حاجباً كبيراً .

وارتحل في السنة عينها السلطان مسعود الى الهند كعادته في الشتاء هرباً من برد خوارزم الشديد ونقل نساءه واهل بيته واخاه محمداً الضرير الذي سبق فسمل عينيه يوم كانا (٢٢٣) نازلين عند نهر حسالم . ووثب انوشتكين على مسعود في الف عبد واوثقه ومضى به الى اخيه محمد الضرير واتفقوا على ان يملك الضرير . فقال الضرير لاخيه مسعود : لستُ اصنع بك ما صنعتَ بي ولكن اختر لك مكاناً تذهب اليه فيمن تشاء من ذويك . فاختار مدينة كلسا وانتقل اليها محفوراً بمظاهر التكريم . وبعد هذا تشاور الزعماء وانتزعوا بحيلة خاتم محمد الضرير وارسلوه مع بعض الجند الى حاكم كلسا ففتح لهم الباب فدخلوا واجهزوا على السلطان مسعود . وكان مودود ابنه في خوارزم فلما سمع بما جرى لابيه حشد خمسة آلاف رجل ووثب على عشرين الفاً كانوا مع عمه فانتصر عليهم وقتل عمه . وثقب مفاصل قَتَلَةِ ابيه وربطها بالحبال فسحبهم الجند على الارض حتى ماتوا . وانقلب هو الى غزنة واستقرّ في ملك أبيه سوى خراسان واذربيجان اذ كانتا للاتراك .

وفي السنة ١٣٥٣ لليونان (١٠٤٢) و٤٣٣ للعرب توفي ميخائيل ملك الروم

دون عقب . وتولى شؤون المملكة ابنتاه زواي وثئودورا ثلاثة اشهر . ثم عقد الاقطاب المشورة وانتقوا منهم ثلاثة اشخاص كفوئين وكتبوا اسماءهم في اوراق وضعوها في صندوقة وختموها بالشمع وأحضروا صبياً مدّ يده واستخرج احداها وبها اسم مونوماخس . فزفّوا اليه ثئودورا المذكورة ونادوا به ملكاً باسم قسطنطين . وأسنت ثئودورا لاختها زواي تسعة قناطير ذهباً بدلاً من الملك . وكان قسطنطين هذا متّصفاً بالشهامة والسخاء ومصاباً بداء النقرس .

وفي السنة ٤٣٤ للعرب (١٠٤٣ م) حدثت زلزلة سريعة في تبريز (٢٢٤) قوّضت قلعتها وسورها واغلب دورها وحمّاماتها واتلفت تحت الانقاض خمسين الف نسمة . اما صاحبها فقد افلت من النائلة لانه كان متغيباً في الحديقة . فلبس المسح وجلس على الرماد حدادًا على خراب المدينة . ثم انهزم فتحصّن في احدى مدنه خوفاً من الغزّ الذين استحوذوا على خوارزم . وتولى خراسان ابرهيم بن يوسف اخو طغرل بك من أمه . وكتب رسالة الى بغداد مؤدّاها : ان شاهنشاه الكبير اعني طغرل بك السلجوقي ملك الملوك قد احتلّ خراسان وخوارزم وهو مصمم ان يوجّه الجيوش الى بغداد اذ بلغه تعدّي المعدّيين على الحجّاج المتوجّهين ليسجدوا في بيت الله واكثارهم من السبي والنهب . فيجب ان تستقبلوهم بالتكريم والعطاء كيما تستتبّ الطمأنينة في كل الاطراف . ثمّ رسم على الرسالة شكل قوس وسهم وبعث بها مع سفيره .

وسقط في هذه السنة بَرَد ضخم وزن الحبة رطلًا بغداديًا او رطلين واكثر من ثلاثين قرية بضواحي بغداد .

وفي السنة ١٣٥٤ لليونان (١٠٤٣ م) ظهر في بلاد الروم ميناخوس الخارجي وانضمّ اليه نحو عشرين الفاً . فوجّه الملك قسطنطين اليه كسطفور الحاجب في اربعين الفاً فاجهز عليه وعلّق رأسه في قصبة واركب اكثر من مائتي رجل من اصحابه على حمير موثقين ووجوههم معكوسة في اذناب الحمير . وجعل في جبين كل منهم اربع خصى ورئة وكبدًا من اعضاء القتلى . وأمر المنادين ان ينادوا امامهم في شوارع العاصمة : هذا عقاب من يعصى الملك ويتمرّد عليه . وبعد

هذا أشفق عليهم وسرّحهم وهو يقول : اذهبوا الى حيث شئتم . ودفع الى كلّ من الجنود سبعين ديناراً او خمسة وثلاثين ديناراً مكافأة لجهادهم .

وفي السنة ٤٣٥ للعرب (١٠٤٣ م) (٢٢٥) وجّه طغرل بك سفيراً الى الخليفة القائم يقول : اني خادم لإمام الدولة العربية . وقد اذعت المناداة باسم الخليفة في البلاد التي ملكتها . وأنقذت الناس من مظالم السلطان محمود والسلطان مسعود اللذين سبقاني ولستُ أضعف منهما . فقد كانا هما من عبيد الخليفة ثم استبدّا بالسلطنة . اما انا فاني حرٌ ومن عترة الملوك الهونيين . فاذا عزّزتموني مثلهما اصبحتُ افضل منهما بطاعتي وتقادمي .

قيل ان طغرل بك كان يجلس على كرسيّ عال وراءه تروس وامامه قوس معتبرة وبيده سهام يلعب بها . وكان يلبس ثياباً بيضاء قطنية ويصوم يومَي الاثنين والخميس ويثابر على تلاوة الصلوات الخمس . ووصف أقضى قضاة بغداد ذكاءه فقال : لمّا زرتُه بنيابة سفير كتبتُ رسالةً سرّيةً الى بغداد اوردتُ فيها عبارات عن عتوه وفظاظته ورياءه في صلاته وهجوتُه هجواً مرّاً . ودفعت الرسالة الى رجل من امنائي فسقطت منه عفواً وعثر عليها احدهم ونقلها الى طغرل بك . فاطّلع على كلّ ما بها وظلّ يؤانسني ويكرمني . ولم اشعر بما جرى حتى أطلعني على الحقيقة كاتبٌ صديقي كنّا سائرَين معاً في الطريق فأكّد لي ان ناقل رسالتي الى طغرل بك قد أضاعها في الطريق .

واعتاد الجنود ان يتوافدوا كلّ يوم فوجاً فوجاً ليؤدّوا الطاعة لطغرل بك . يتألف كلّ فوج من الفي شخص . وكانوا ينحدرون عن خيلهم من بعيد ويقبّلون الارض ويقفون . ثم يشير الحاجب اليهم بان تحيّتهم قد قبلت . فكانوا يقبّلون الارض ثانيةً ويركبون وينصرفون فيأتي فوجٌ ثانٍ . ولم يكن يدنو منه لحدٌ او يحادثه . وتعوّد الجنود التخريب والسبي والقتل اينما اتجهوا . ولم يسع الناحيةَ التي يقيمون بها احتمالهم اكثر من اسبوع واحد بسبب كثرتهم . وطالما اضطرّوا ان يتوجهوا من ناحية الى ناحية انتجاعاً لقوتهم وعلف خيلهم .

وساروا في تلك الفصول وعاثوا في بلد نصيبين وميافرقين وسنجار والخابور

وقتلوه في آمد ويزك حاكمها ، ثم زحفوا الى الموصل وطالبوا معتمد الدولة صاحبها خمسين الف دينار ليتركوها وينصرفوا . فلم يلبِّ الطلب فاحتلوا المدينة وانهزم هو من بابٍ تحت الارض ينفذ الى دجلة . وقصد الغزّ داره واحتووا على ما ساوى مائتي الف دينار واقتسموا سبع عشرة نسائه العربيّات والكرديات وجواريه الكثيرات . ثم نهبوا المدينة سوى حيّ شهرسوي فان اهله ادّوا لهم خمسة عشر الف دينار. واشترى نساء معتمد الدولة آباؤهنّ واقام الغزّ ولاةً في الموصل وانطلقوا الى مدينة بلد فامتنعت عليهم .

وتحرّش احد الغزّ بعد ايام وجيزة بصبيّ موصليّ وطعنه بالرمح . فسخطت امّه وكانت صخّابةً مهذارةً فلطخت وجهها بالدماء وخرجت تنادي في الشوارع ان الغزّ قتلوا ابني وابنتي واوقعت صيحةً عظيمةً استفزّت العرب فوثبوا الى الغز وقتلوهم . فبادر سائر الغز من بلد الى الموصل واتخنوا في الفي شيخ وفتًى وظلوا اثني عشر يوماً يغزون ويقتلون. وكانوا يقولون لكلّ من قبضوا عليه : اشترِ نفسك . هكذا استنزفوا كلّ ما كان في الموصل من فضّةٍ ظاهرًا وخفيًا ثم نادوا بالامان . وبعثوا الفلّاحين الى مزارعهم وامروهم ان يحرثوا اراضيهم . وما مرّ القليل حتى استجمع المعتمد قواه وحشد المدنيين وناوش الغز وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيرًا وانهزم من تبقّى منهم الى اذربيجان .

وفي سلخ تشرين الاوّل ١٣٥٥ للاسكندر (١٠٤٤ م) توفي ابو الفرج الراهب النسطوريّ والفيلسوف الفاضل الحميد الاثر . وقد نقل (٢٢٧) العهدين القديم والجديد وتصانيف ارسطو الى اللغة العربية . وتطرّف لذمّ جالنوس النساطرة بسبب تغاضيهم عن العلوم البيعيّة وغيرها . غير انه فيما اظنّ لم يكن متضلّعاً من السريانيّة اذ عثرتُ في بعض شروحه على اغلاط أذكرُ منها لفظة مُسْنَاه الواردة في سفر ايوب بضمّ الحاء وتليظ التاء بمعنى نظرتُهُ . فمعناها هو مَسْنَاه بفتح الحاء وتليين التاء وشرحها بمعنى آخرتِه .

وفي هذه السنة زحف جيش عرمرم من الصقالبة اعني الروس الى عاصمة الروم بحرًا وبرًا فأنجد الله عزّ وجلّ الروم وأضرموا النيران في سفن العدوّ

واحرقوها مع مَن فيها واغرقوهم واوثقوا الكثيرين من عساكر البرّ وبتروا ايديهم اليسنى وانتصروا عليهم انتصاراً باهراً .

واستفحل في تلك الفتون أمر الدخلاء من الارمن والعرب واليهود في قسطنطينية فثار الوطنيون واحتشدوا بباب بلاط الملك قسطنطين يدّعون بانه فتك بالملكتين ثئودورا وزاوي وحاولوا ان ينهبوا البلاط ودور الزعماء . فاجتمع الملك بالاقطاب واستدعى الملكتين فبرزتا رافلتين بالحلل الملكية . وما ان شاهدهما الثوار حتى اطمأنت خواطرهم وكفّوا . ولما بحث الملك عن سبب الفتنة الجوهري قيل له . ان الدخلاء أثاروها قصد اجتياح المدينة . فاصدر الأمر بترحيل كلّ من مرّ عليه في العاصمة ثلاثون سنة ويبدل عيني من يبقى منهم فيها . فغادرها حالاً نحو مائة الف نسمة .

وفي السنة ٤٣٦ للعرب (١٠٤٤ م) وجّه الخليفة القائم سفيراً الى طغرل بك في اربع مسائل : الاولى ان امير المؤمنين يقول لك يكفيك ايها الامير طغرل بك محمد ما احتلتهُ من البلاد . فلا تطمعنّ بسائر بلاد ملوك العرب ولا تؤذيهم . والثانية : ان تطيعنا وتحلف لنا شرعاً بانك ان خالفت امرنا لزمك ان تُطلّق نساءك الشرعيّات وتعتق عبيدك وتزكي اموالك كلها (٢٢٨) . والثالثة : ان تلازم العدل وتحجم عن الظلم ولا تولّ الظلّام شؤون ابناء الرعية . والرابعة : ان تبعث لنا كلّ سنةٍ بجزية البلاد التي اغتصبتها كعادة من سبقك . فاذا نفذت ذلك عزّزناك بتحفٍ والقابٍ كريمةٍ واصبحت سلطنتك شرعية منزّهة عن الظلم والغدر .

اصغى طغرل بك الى تلك المسائل وقال في الجواب الاول : ان جنودي كثيرون لا تكفيهم هذه البلاد . قال السفير : لانكَ انت أخربتَها . فلو ملكتَ الارض كلّها واخربتَها لَما كفتك وكفت شعبك . وقال في جوابه الثاني : ان هذا النوع من الحلف يكاد يجهله العلما . فكيف يتيسّر لي الترقّي في تصرّفاتي الامور الزهيدة ؟ قال السفير : حسبك ان تعرب بكلّ قلبك عن طاعتك وتلازم العدل فلن تزلّ . وقال في جوابه الثالث : اني افرغ الجهد قدر طاقتي في ان الزم العدل في حكمي . ولكن ما حيلتي اذا اذنب احد

الجياع الذين معي ؟ وقال في جوابه الرابع : أطلقني على مقدار الجزية أدفعها ان تيسّر . على ان الحقيقة هي ان طغرل بك لم يقبل مسئلة واحدة من المسائل الاربع .

وفي السنة ١٣٥٦ لليونان (١٠٤٥ م) غرقت بيوت مدينة ارزنجان كلها سوى بيت آل قرياقس السريان . فاصبح كجزيرة لم تدخله المياه . ذلك لما امتازوا به من الحسنات والتصدّق على الفقراء .

وفي السنة ٤٣٨ للعرب (١٠٤٦ م) دوّخ الغزّ مدينة الحلّة واحرقوها واضطرّوا الاهالي حتى اكتشفوا المطامير كلها واحتووا عليها وارتكبوا المنكر من النساء والعذارى وانقلبوا .

وفي هذه السنة وجّه مطران الفاطرة من سمرقند رسالةً الى الجاثليق تُليت في دار الخليفة مضمونها ان شعباً غفيراً يحاكي الجراد كثرةً اخترقوا ترعةً في جبلٍ ما بين تبت و كوتن (٢٢٩) كان اسكندر الكبير فيما ذكرت الاخبار السالفة قد سدّها فخرجوا ووصلوا الى كشكر يتولّاهم سبعة ملوك مع كل ملك سبعمائة الف فارس . واسم كبيرهم ناصرت اعني المسلّط بامر الله . وهم سودٌ كالهنود لا يغسلون وجوههم ولا يمشطون شعورهم لكنهم يضمّونها كاللبّاد ويتّخذونها بثابة ترس يحرسهم . وهم محنكون يرمي النشّاب ويكتفون لطعامهم بالقليل العاديّ . وهم رحّالة مستقيمون وخيلهم تأكل اللحم .

وعند قراءة الرسالة قال احد الوجهاء العرب : لا يُصدَّق ان الحصان يأكل اللحم . فعارضه وجيهٌ ثانٍ وقال : لا يدهشك ذلك فقد شاهدت بعيني حصاناً عربياً يأكل لحماً وسكراً مطبوخاً . قلنا : لعلّهم ينشّفون اللحم ويدقّونه كالتبن ويلقمونه الخيل . لان الصيد في تلك الاطراف كثير والعشب قليل .

وفي السنة ٤٣٩ للعرب (١٠٤٧ م) ظهر رجلٌ في راس العين اسمه الاصفر ادّعى ان القرآن ذكر عنه انه سيشرّف دين العرب . وتوغّل مرتين يتلصّص ببلاد الروم وغزا غزوةً وانقلب . فكتب ملك الروم الى ابن مروان يقول : بنا ان بيننا وبينك صلحاً وولاء لزمك ان تمنع هذا اللصّ ان كان من عبيدك . والّا فأفدنا لنعمل ما نرى . فاستدعى ابن مروان بعض الامراء المعدّين

وقال لهم : يظهر ان هذا الاصفر يحاول ان يحرش بنا الروم فاذا زحفوا ازعجونا وازعجوكم . فالرأي عندي ان تحتالوا وتقبضوا عليه . فحمل عليه المعدّيون وجعلوا يجذبون نشاطه وهمته بشأن العرب . ثم ركبوا وركب معهم وجعلوا يطاردون متفاخرين بفراستهم ريثما ابتعدوا عن القرى . ثم اطبقوا عليه ومضوا به الى ابن مروان فاعتقله وسجنه وجدّد الصلح مع الروم .

واستفحل المرض والوباء هذه السنة في كل الاقليم الرابع حتى (٢٣٠) بيعت زهرة الليتوفر بدرهم بغدادي وبيع فرخ الحجل بدرهمين فضّة . ولم يكترث البغداديون للقمح والشعير اصلاً . واشتدّ الجوع والمرض والوباء في الموصل بسبب الجراد حتى بيع كور الحنطة بستين ديناراً

وفي السنة ٤٤٣ للعرب وهي السنة ١٣٦١ لليونان (١٠٥٠ م) وجّه السلطان طغرل بك سفيرا الى ابن مروان صاحب ارمينية في الطاعة لامره . فرحّب به وأدّى له ثلاثين قطعة من القماش الفاخر وخمسمائة دينار وخياماً وعشرة بغال موسقة بضائع وحصاناً عربياً واسيراً من بطاركة الروم كان الروم قرّروا ان يؤدّوا له ثلاثين الف دينار دية عنه . ثم قال للسفير : ليس عندي تقدمة اخرى توافق السلطان . فاقتنع بها السفير وعقد معه صلحاً ومودعة وانطلق .

سمع قسطنطين الملك بما جرى فارسل الى ابن مروان يرغب اليه كي يسعى لانفاذ البطريق وقال له : اني عارف انّ السلطان طغرل بك صاحب مروءة وشهامة ولن يمنعه عني ان طلبته باسمي . فكتب ابن مروان الى السلطان فأبدى السلطان شهامةً كبرى ووجّه البطريق مع سفير الى قسطنطين دون ان يطالبه بثمن او تعويض . فسُرّ الملك سروراً عظيماً وجدّد مسجد العرب الكبير في عاصمته وعلّق فيه القناديل وأقام له مُصلّين عربياً عيّن لكلّ منهم معاشاً . ثم سيّر الى طغرل بك الف قطعة أطلس وخمسمائة ثوب مختلفة الاشكال وخمسمائة حصان وثلاثمائة جحش مصريّ وألف عنزة عيونها بيضاء وقرونها سودا. وكانها الجحاش ضخامة .

وفي هذه السنة تضايق اهالي اصفهان بسبب محاصرة طغرل بك لمدينتهم

تسعة اشهر فارسلوا يتوسلون الى خليفة بغداد ليكتب له في الافراج عنهم . وكان طغرل بك سبق فسأل الخليفة ان يشرّفه بالقاب ملكية . فرأى الخليفة ان يتساهل معه وكتب اليه رسالة سيّرها مع سفيره نَعَتَه فيها بالملك الشرعي وملاذ المسلمين وركن الدين . وسأله بشأن اهالي اصفهان . وكان السلطان يتوقع مثل تلك النعوت فلبّى طلب الخليفة وارسل اليه عشرين الف دينار باسم خزانته والفي دينار باسم حاشيته . وجعل منذ إذٍ يرسم شكل قوس في طغرائه ويسجّل فيها الطغرائي النعوت الموماً اليها .

وفي السنة ٤٤٣ للعرب (١٠٥١ م) وجّه قسطنطين ملك الروم سفيرًا الى القائم خليفة بغداد في رسالة بالرومية تخلّلت سطورها ترجمتها بالعربية . ورُقّمت بحروف ذهبية على قطعة ارجوانية افتتحها بهذه العبارة : قسطنطين الملك المؤمن المعظّم القدير بالمسيح الله اغوسطس موناخس الوحيد في دولة الروم . الى الصديق الودود الكريم ابي جعفر إمام المسلمين وامير المؤمنين . الى غير ذلك من عبارات الولاء .

وفي السنة ٤٤٦ للعرب (١٠٥٤ م) اصبحت بلاد فارس جميعها خاضعة للسلطان ركن الدين طغرل بك فوجّه الالحاظ نحو بلاد الروم وزحف الى قلعة مناذكرد وضيّق عليها زمناً طويلاً ولم يتمكّن منها فغزا البلد وسار الى ارضروم وهي للروم وغزاها كذلك وعاد ليشتي في اذربيجان ناوياً العودة ثانيةً الى بلاد الروم .

وفي كانون الثاني ١٣٦٥ لليونان (١٠٥٤ م) توفيّ قسطنطين الملك زوج ثئودورا وتولّت هي تدبير المملكة سنةً واحدةً ووجّهت سفيرًا الى خليفة بغداد وجدّدت عهود الصلح بجزية تطوّعت بها .

وفي السنة عينها ارسل السلطان ركن الدين طغرل بك سفيرًا الى الخليفة يقول : اودّ لو احضر الى بغداد واتشرّف بالخدمة النبوية (٢٣٢) ثم احجّ مكّة واصلّي فيها واقطع دابر المعتدين المتلصصين في طريق الحجّ ثم أتوجه الى محاربة الخوارج في سورية ومصر ان شاء الله . فكتب له الخليفة على كره منه كتاباً اثنى على همته في سبيل الدين واستعجله على القدوم الى بغداد . غير